بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

«كل مافاتك – من الله سوى الله – : يسير ، وكل حظ لك ، سوى الله قليل » .

بهذه الحكمة البالغة التى نطق بها أبو سعيد : نبتدئ الحديث عنه ، ولانبتدئ بهذه الحكمة اعتباطاً ، ولكن لأنها محور تفكيره .

لم تخدعه زخارف الحياة الدنيا ، ولم تلهه مفاتنها ؛ فاختط لنفسه طريق الصديقين ، وسار على نهج أولياء الله ، رضى الله عنهم .

لقد ابتدأ – كما تبتدئ الصفوة المختارة – باحثاً منقباً عن الله ، فوجده ظاهراً فى آثاره :

لقد وجده فى النسمة العليلة ، وفى الزهرة الندية ، وفى النجم المتألق ، وفى شعاع الشمس الذهبى ؛ لقد وجده فى الخير ، وفى الجمال ، وفى الجلال ، فأحبه وهام به . وكانت حالته ، كما يصف هو ، فيقول :

« والمحب يتعلل إلى محبوبه بكل شىء ، ولايتسلى عنه بشىء ، ويتبع آثاره ، ولا يدع استخباره »

وكثيراً ما أنشد تعبيراً عن حاله أيضاً :

أسائلكم عنها ، فهل من مخَبِّرٍ ؟ فمالى بِنعُمٍ – مذنأت دارُها – علم !

فلو كنتُ أدرى أين خيَّم أهلُها ؟ وأيَّ بلاد الله – إذ ظعنوا [1] أمُّوا [2] !

إذن لسلكنا مسلك الريح خَلْفها ولو أصبحت نعمٌ ، ومن دونها النجمُ !

وكثير من الناس من يُفيض الله عليه النعمَ ، ويمنحهم من جوده فينعمون بما أنعم لاهين عنه ، ويتلذذون بما منحهم من أسباب الملاذ ، غير متجهين إليه سبحانه .. !

أما أبو سعيد : فكان مسلكه ، وكان شعاره شيئاً آخر .. إنه يعبر عن منهجه حين يقول :

« ينبغى أن يكون فرحك فى العطاء : بالمعطى ، ولذتك فى اللذات : بخالق اللذات ، وتنعمك فى النعم : بالمنعم دون النعم ، لأن ذكر النعمة ، عند ذكر المنعم : حجاب ، ورؤية النعمة ، عند رؤية المنعم : حجاب » ويشرح حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .. »

فيقول : « واعجباً ممن لم ير محسناً غير الله ، كيف لا يميل بكليته إليه » ! !

وفى الاتجاه إلى الله : نعيم لايعدله نعيم ، ولذة لاتعدلها لذة . . .

وإذا نعم الناس بملبس يبلى ، أو بمطعم لاتلبث حلاوته أن تزول ؛ فإن

(١) ظعنوا : ارتحلوا وسافروا .

(٢) أموا : قصدوا واتجهوا .

لأولياء الله نعيمهم المبرأ من الأوضار ! ! [1].

إن لهم نعيمهم الروحى ، ولكن لهم أيضاً نعيم أبدانهم الطيب الطاهر .

يقول أبو سعيد :

« إن الله تعالى عجلَ لأرواح أوليائه التلذذَ بذكره ، والوصولَ إلى قربه ، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم ، وأجزلَ نصيبهم من كل كائن » فعيش أبدانهم : عيش الجنانيين (أهل الجنة) ، وعيش أرواحهم : عيش الربانيين » .

ولاعجب ، بعد ذلك ، أنه إذا أنس الناس بالأخلاء والأخدان ، أن يكون أنس أبى سعيد بالله ؛ ولاعجب أن يكون حديثه عن الأنس بالله : يمتاز بالدقة والوضوح .

يقول أبو سعيد ، وقد سئل عن الأنس بالله : ماهو ؟ :

« استبشار القلوب بقرب الله تعالى ، وسرورها به ، وهدوؤها: فى سكونها إليه ، وأمنها : معه ، من حيث الروعات ، وإعفاؤه لها من كل مادونه : أن تشير إليه ، حتى يكون هو المشير لأنها ناعمة به ولاتحمل جفاء غيره »

---

(١) الأوضار : جمع وضر ، والوضر : وساخة الدسم واللبن . . . القاموس .

حياته :

بغدادى النشأة والمنبت ، ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى تقريباً ، واشتهر بأبى سعيد الخراز ، واسمه : أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز .

وقد صحب ذا النون المصرى ، وسريًّا السقطى ، وبشر بن الحارث ، ونظراءهم .

يذكره صاحب طبقات الصوفية فيقول :

« هو : من أئمة القوم ، وجلة مشايخهم »

ويذكر أنه قيل :

« إنه أول من تكلم فى علم الفناء » .

أما صاحب الحلية ، فإنه يقول عنه :

« ومنهم : العارف المعروف الكامل ، بالبيان موصوف ، له الكتب المذكورة ، والأجوبة المشهورة ، صحب ذا النون ونظراءه ، انتشرت بركاته على أصحابه ومتبعيه ، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء »

ويتحدث مؤرخوه ، كلهم تقريباً : بأنه روى الحديث التالى بإسناده :

« سوء الخلق : شؤم ، وشراركم : أسوؤكم أخلاقاً » .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته :

فيذكر صاحب الرسالة القشيرية : سنة سبع وسبعين ومائتين .
ويذكر صاحب الطبقات : سنة تسع وسبعين ومائتين .

رأيه فى المعرفة :

يهدف الصوفية دائماً ، إلى معرفة ماوراء الطبيعة معرفة يقينية ، ولكن كيف تتأتى المعرفة ؟

إنها – حسبما يرى أبو سعيد – : «تأتى القلب من وجهين : من عين الجود ، ومن بذل المجهود »

إنها فيض من الله ، وإنها اكتساب وجهد ، وفى الوصول إليها السعادة ، بيد أن طريقها – وهو نفس الطريق إلى الله – : ليس سهلا هيناً ، وإذا كانت الغاية نفيسة فلا يتأتى أن يكون سبيلها تافهاً .

كيف نصل إلى الله ؟ ماهو الطريق إليه ؟ كيف نصل إلى خالص العلم ؟ كيف نرد على حياض المعرفة ؟

سئل أبو سعيد عن أوائل الطريق إلى الله ، فبين أنه :

التوبة ؛ ثم ذكر شرائطها ؛ ورسم الطريق الذى يرسمه الصوفية ؛ وهو : طريق نفسانى سيكلوجى ؛ من أدق مايكون ، ينتقل فيه الإنسان من مرحلة إلى مرحلة ؛ مترقياً من مقام التوبة ؛ حتى يصل إلى مقام المحبين ، ويترقى إلى مقام المقربين .

فإذا وصل إلى هذه المرحلة ؛ أدمنت روحه النظر فى النعمة ؛

وفكرت فى الأيادى والإحسان ؛ فانفردت بالذكر ؛ وجالت فى ملكوت عز الله ، بخالص العلم به ، واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة . فنعمت وسعدت .

ولنذكر ذلك بأسلوبه ، نقلا عن كتاب : «حلية الأولياء» :

قال أبو سعيد :

«إن أوائل الطريق إلى الله : التوبة»

وذكر شرائطها .

«ثم ينقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف .

ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء .

ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين .

ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين .

ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين

ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين .

ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين .

ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء

ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين .

وذكروا لكل مقام عشر شرائط ، إذا عاناها وأحكمها ، وحلت القلوبُ هذه المحلة : أدمَنتِ النظر فى النعمة ، وفكرت فى الأيادى والإحسان .

فانفردت النفوس بالذكر ، وجالت الأرواح فى ملكوت عزه بخالص العلم به واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة ، وإليه فى محبته ناظرة .

أما سمعت قول الحكيم وهو يقول :

أراعى سوادَ الليل أُنساً بذكره وشوقاً إليه ، غيرَ مستكره الصبر
ولكن : سروراً دائما ، وتعرضا وقرعا لباب الرب : ذى العز والفخر

فحالهم : أنهم قربوا فلم يتباعدوا ، ورفعت لهم منازل فلم يخفضوا ، ونورت قلوبهم ، لكى ينظروا إلى ملك عدْن ؛ بها ينزلون ، فتاهوا بمن يعبدون ، وتعززوا بمن به يكتفون .

حلّوا فلم يظعنوا ؛ واستوطنوا محلته ، فلم يرحلوا ، فهم الأولياء ، وهم العاملون ، وهم الأصفياء ، وهم المقربون .

أين يذهبون عن مقام قرب ، هم به آمنون ؟ وعزوا فى غرف ، هم بها ساكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، فلمثل هذا فليعمل العاملون »

فإذا ما ورد الإنسان حياض المعرفة ، هل يتأتى له أن يعلم مايخالف الشريعة ؟

هل الباطن ، وهو المعرفة التى وصل إليها ، يخالف الظاهر ؟

هل الحقيقة تخالف الشريعة ؟ !

يقول أبو سعيد كلمته الحاسمة :

---

(١) حلية الأولياء المجلد العاشر ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

كل باطن يخالف ظاهراً : فهو باطل .

* * *

وكتاب الصدق – وهو الوحيد الذى بقّى من آثاره[1] ، والذى نقدمه اليوم ، مغتبطين ، إلى القراء – : كان من الكتب التى يتوارثها الصوفية ، ويحيطونها بالكتمان ، ويضنون بها على غير أهلها ، لأنها ذخيرة نفيسة ، لايصح أن تبتذل للعامة ، وكأنها لؤلؤة مكنونة ، لايستساغ أن تقتحمها أعين الدهماء .

والواقع : أنه مختصر فى غاية النفاسة ، يرسم – فى دقة وفى وضوح – الطريق إلى الله[2] ! !

عبد الحليم محمود

---

(١) لقد كان كتاب الصدق ، هو الكتاب الوحيد إلى عهد قريب جدًّا . ثم اكتشف الأستاذ آربرى مجموعة من رسائل الخراز ، ضمن مخطوط يحتوى على كتب ورسائل صوفية . ولقد حقق الأستاذ الدكتور قاسم السامرائى مايخص الخراز فيها ، ونشر فى مجلة المجمع العلمى العراقى : المجلد الخامس عشر سنة ٦٧ كتاب الصفاء ، وكتاب الضياء ، وكتاب الكشف والبيان ؛ وكتاب الفرع ، وكتاب الحقائق فجزاه الله خير الجزاء . وقد وقعت هذه الكتب فيما يقرب من أربعين صحيفة .

(٢) كتب الإمام الأكبر رضى الله عنه بعد ذلك مقدمة مختصرة للطبعة الثالثة من الكتاب ، نقتطف منها ما يلى .

إن المسلمين الأول علموا الحقيقة البدهية . وهى : أن المجتمعات ؛ لاتقوم إلا على الأخلاق .

لقد كان واضحاً فى أذهانهم ، ماقاله شوقى رحمه الله : =

.....

=وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لقد كتبوا – رضوان الله عليهم – كثيراً فى الأخلاق ، ليبثوا بذلك الأمة الإسلامية ، لتكون فى مراكز القيادة فى هذا الجانب .

وأخذ الكتّاب ينشرون الفكرة الإسلامية ، من خلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وسلوك الرسول ﷺ ومن تبعه من الراشدين المهديين .

وبعض الكاتبين التزم فى ذلك القرآن والسنة فحسب ، كما فعل الإمام النووى رضوان الله عليه فى كتابه النفيس «رياض الصالحين» وكما فعل الإمام الحافظ المنذرى فى كتابه المبارك : «الترغيب والترهيب» .

وبعض الكاتبين اتخذ القرآن والسنة أساساً ، ثم استفاض فى ذكر آراء الأسلاف السابقين ، وذكر حكايات عنهم : تهدى الإنسان إلى الرشد ، وتقوده إلى الصراط المستقيم .

من ذلك : الكتاب الخالد «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى .

وكل كتب الأحاديث ، وكل كتب تفسير القرآن ، إنما هى على وجه العموم – تربية للشخص تسير به إلى المثل الأعلى .

وهذا المثل الأعلى ، إنما يتمثل فى معنى كلمة «الإسلام» أى العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى ، والخضوع المطلق له وحده .

وإنما يتمثل ذلك فى قوله تعالى لرسوله الكريم :

(قل إنَّ صَلاَتى ونُسُكى ومَحْيَاىَ ومَمَاتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين) .

إن الهجرة إلى الله : أسساً وبواعث ، وغاية وأهدافاً وكيفية ، يضمها كتاب الله وسنة رسوله .

وماتضمنه كتاب الله وسنة رسوله معصوم :

(لايأتيه البَاطِلُ مِنْ بَينَ يَدَيْهِ ولاَ مِن خَلْفِهِ) .

ومن أجل ذلك : تشبث أسلافنا – رضوان الله عليهم – بهذه العصمة ، وكتبوا فى ذلك ، =

= متخذين القرآن ، وسلوك رسول الله ﷺ وأقواله : القدوة الحسنة ، والأسوة الكريمة .

واهتدى بهديهم مالاحصر له من الأفراد .

وخلف من بعدهم خلوف : اتجهوا – فى عصرنا الحاضر – إلى «أوربا» يستمدون منها السلوك . وتفرقت بهم الطرق ، وتشتت بهم الأهواء ، وفسد بهم وبآرائهم الكثير .

وكان لابد من العودة إلى النهج السلفى .

ومن هنا ، كان حرصنا على نشر هذا الكتاب النفيس «كتاب الصدق» .

والله نرجو أن يهدى له ، وأن يهدى به ، وأن يجعله من اللبنات التى يتكون منها الجو الأخلاق الذى يعتصم بالله سبحانه وتعالى :

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إلى صراطٍ مُسْتَقِيم) .

obeikandl.com